

هل الخطر علي الابواب بالنسبة للغة العربية

الاسناد الدكتور حسين يازيحي/Hüseyin Yazıcı

كلية الاداب جامعة اسطنبول

انتشر الحديث باللغة العربية الفصحى في عدد من المناطق المختلفة بالعالم بشكل تدريجي بعد ظهور الإسلام، بينما كان الحديث بها قبل الإسلام مقتصرًا على شبه الجزيرة العربية فحسب. فضلاً عن ذلك فإن استخدامها لم يكن مقتصرًا على الحياة اليومية وعلى الأدب الشفوي، بل كانت في الوقت ذاته لغة ثقافية مميزة تُستخدم في الدراسات العلمية المختلفة.

لقد واجهت اللغة العربية صعوبات حمة في مراحل تطورها، وشهد التاريخ سجلات ومناقشات حادة في شأن هذه اللغة سواء قصداً أو بغير قصد. وتعتبر اللغة العامية التي يتحدثها الناس دون مراعاة للقواعد النحوية، والفصحى التي يراعون فيها القواعد النحوية، من ضمن المشاكل التي واجهتها اللغة العربية.

كانت اللغة العربية الفصحى والعامية في حالة من التنافس المستمر على مدار التاريخ، كان يُراد من هذا الصراع والتنافس في نهاية القرن التاسع عشر بصفة خاصة التحول إلى تحديات أخرى، سواء كان ذلك بحسن نية أو عن عمد. والمدافعون عن العربية الفصحى كانوا يرون اللغة العامية على أنها "اختلال وضعف في اللغة"، بينما يرى المدافعون عن اللغة العامية، اللغة الفصحى، أحد الأسباب المهمة التي أدت إلى التخلف اللغوي.

وفي حقيقة الأمر؛ كانت لهجة قبيلة "قريش" في شبه الجزيرة العربية أفضل من اللهجات الأخرى من نواحي عديدة، وهذا ما يفسر سبب استخدامها كلغة أدب من قبل الدول الأوروبية. وبحسب ما هو معروف كانت تأتي القبائل العربية الأخرى إلى مكة في موسم الحج والأشهر الحرم، وتطلب تحكيم أهل مكة في بعض المسائل.

نشأت لهجات جديدة في وسط العديد من القبائل المختلفة، ويُعزى ذلك إلى تأثير العوامل المناخية، وتغير الظروف الجغرافية والاقتصادية، والدوافع الثقافية، إلى ما هنالك من أسباب أخرى. في الحقيقة؛ كانت توجد لهجة خاصة بكل قبيلة، ورغم ذلك لم يكن التفاهم صعباً فيما بينهم حيث أن هذه اللهجات جميعها مشتقة من اللغة الأم.

وكما هو معروف كانت جميع القبائل التي تعيش في شبه الجزيرة العربية، تضطر للهجرة من آن لآخر بسبب الظروف الجغرافية، لكن بعض هذه القبائل عاشت حياة مختلفة عن القبائل الأخرى في الأماكن التي سكنوها، ذلك بسبب أن المناطق التي هاجروا إليها كانت ملائمة لهم، وعلى هذا المنوال تمكنت هذه القبائل من المحافظة على لهجاتها بعيدا عن المؤثرات الخارجية لفترة معينة.

يلاحظ أن اللغة العربية العامية بدأت بالانتشار بعد صعود مجموعة من الأصوات المناهضة للغة العربية الفصحى في العهد العباسي (750-1258 ميلادي) وخاصة بعد العام (150 هجري). في واقع الأمر كان العرب يتحدثون اللغة العربية الفصحى في الأوساط الشعبية وفي البيئات الحاكمة، بعيدا عن جميع العناصر الأعجمية حتى سنة (150 هجري) (750 ميلادي) تقريبا. و اعتبارا من هذا التاريخ، بدأت تزحف إلى اللغة العربية الفصحى مفردات وتراكيب لم تكن ملائمة لقواعد النحو اللغوي. ان الفتوحات العربية للبلاد، والانتشار السريع للإسلام، واحتكاك العرب بغيرهم من الشعوب، فرض نتيجة حتمية هي الانحراف في بنية اللغة العربية.

بلغ انتشار اللغة العربية العامية الذروة بعد عهد هارون الرشيد(149-193-766-809) وقد عظم تأثيرها لاسمًا عندما تفتشى استخدامها بين عامة الشعب ورجال الدولة على حد سواء. وكان من أهم الدلائل التي تشير الى تغلغل اللغة العامية في حياة العرب وسيطرتها على لغتهم الأخطاء اللغوية التي ظهرت في كتابات بعض الأدباء.

وقد تابعت اللغة العربية العامية اقتحامها للغة الفصحى مُحدثة تغيراً في البلاد والمدن من دون توقف، ولا تزال سيطرة اللغة العامية قائمة إلى يومنا هذا.

كان بعض المستشرقين الأوروبيين في القرن العشرين، يدعون لإستخدام اللغة العربية العامية بدلا من اللغة العربية الفصحى، وجاءت الردود الأولية من بعض البلدان العربية كصر وسوريا، علماً أن بعض المجموعات في هذه البلدان أفصحت عن رغبتها باعتماد اللغة العربية العامية حتى قبل دعوات بعض المستشرقين في هذا الإتجاه.

لا يمكن إنكار ما طالب به الأوروبيون، كي يجدوا ذريعة للتدخل والتأثير في الحياة الإجتماعية، والسياسية للعرب. وقد دققوا اولاً اللغة العربية ومن ثم آدابها و ركزوا على العلاقة التي تجمع بين عنصري الدين والثقافة الإسلامية و توصلوا الى أن اللغة العربية الفصحى عاجزة عن تقديم إجابات شافية للإحتياجات الأدبية والثقافية للشعب.

كانت المبادرات الأولى التي جاءت من الغرب، تحرك بعض المستشرقين والمدافعين عن اللغة العربية العامية في مصر وسوريا بسهولة و بدأ هذا التحرك يتسرب نحو البلدان العربية الأخرى، بواسطة بعض مؤيدي المستشرقين من هذين البلدين.

كانت بعض المدارس التي أفتتحت في الغرب تولي لغة الحوار أي المحادثة إهتماماً كبيراً فيما يتعلق باللغات الشرقية، وكانت تشجع على هذه الأنشطة في البلدان العربية خاصة. وزعم بعض المستشرقين والمتقنين العرب أن اللغة العربية الفصحى ستواجه يوماً ما تشابهاً باللغة اللاتينية، مع عدم وجود ذلك التشابه قبل ذلك.

كما هو معروف أن اللغة اللاتينية كانت لغة العلم والأدب آنذاك. لكن مع مرور الزمن أصبحت اللغات العامية لغات مستقلة تُستخدم في الأدب والعلوم، بعد انفصال اللغة الفرنسية، والإيطالية، والإسبانية، والبرتغالية عن اللغة اللاتينية، دخلت اللغة اللاتينية مرحلة التقسيم بعد ذلك، وأصبحت لغة مندثرة. وإن تشبيه اللغة العربية الفصحى باللغة اللاتينية هي مزاعم ليس لها أساس علمي قط.

حينما كان المستشرق الألماني فلهايم سبيتا مديراً لمكتبة "دار الكتب المصرية"، في العام 1880 دعا إلى استخدام اللغة العربية العامية بدلا من اللغة العربية الفصحى. واقترح يعقوب صروف (1852-1927) فكرة في المقالة التي نشرها في صحيفة "المقتطف"، "إلغاء اللغة العربية الفصحى مؤيداً بصراحة أن تكون اللغة العربية العامية لغة الكتابة واللغة الرسمية للصحف اليومية، وقبول اللغة العربية العامية كلغة جديدة.

كان الإنجليزي وليام ويلككس (1852-1932) الذي جاء إلى مصر في العام 1883، ليعمل مهندساً في الشؤون المائية، يصر في جميع محاضراته التي ألقاها على تناول مسألة أن اللغة العربية الفصحى قاصرة عن مجازاة العصر الحديث، وضرورة الإنتقال إلى لغة جديدة بشكل واضح وصریح. تعد تعبيرات ويلككس دليلاً على أنه لم يفكر بإخلاص حول اللغة العربية، وجاء فيما قوله "من يكتب لنا مقالة باللهجة المصرية مثبناً أن اللغة العربية العامية هي لغة الكتابة والأدب، وإذا نجح في ذلك ستمنح جائزة مقدارها أربعة جنيهات، وإذا كانت المشاركة كبيرة، سيتم منح المكافأة لمن يحتل المركز الأول".

كانت هذه المبادرة التي بدأها الغربيون، قد قسمت المتقنين العرب إلى فريقين، وعلى الأرجح كان الضرر أكثر من الفائدة.

عندما اقترح مارون غصن (1880-1940) و اخرون أفكاراً بعيدة عن الواقع، حيث وقف مارون غصن على ضرورة التمسك باللغة العامية، لإمكانية الوصول إلى دولة مدنية علي مستوى حضاري، ودرس فكرة أن اللغة العربية الفصحى تجعل الدولة تتخلف في كل المجالات، لذلك يجب أن تكون آراء بعض المستشرقين نموذجاً يحتذى به المثقفون العرب.

يقول جوستاف لبون ان المسلمين العرب عملوا أساتذة للأوروبيين على مر العصور، وتعلمنا نحن الغربيون حضارات روما واليونان عن طريق العرب، وكان تُدرس الكتب المترجمة عن العربية حتى الفترات الأخيرة في جامعاتنا. ومن ناحية أخرى قال المستشرق الفرنسي بارتلميد هربلوت (1625-1695) و غليوم باستيل (1505-1581) "اللغة العربية هي أفضل لغة من الناحية الأدبية وأكثرها طلاقة".

الغريب في ذلك، بينما يتحدث أليس فريجه وسلامة موسى عن فقر اللغة العربية الفصحى، يتحدث بعض المستشرقين الأوربيين ذوي الإيضاف عن غنى هذه اللغة وجالها وطابعها الفريد.

إن القرار التالي الذي لم يسمعه الكثير حتى الآن، والذي صدر في مؤتمر المستشرقين الذي عُقد في اليونان في وقت ما، يوضح رؤية مختلفة عن العديد من المثقفين العرب: "اللغة العربية الفصحى هي في مستويات تكفي لأنشطة الحوار والكتابة والتأليف في البلدان العربية والإسلامية. علي الحكومات العربية الحد من الأضرار التي توليها اللهجات العامية التي بدورها بعيدة عن كونها لغة أدبية، و العمل لنشر اللغة العربية الفصحى".

في مجلة التعليم الفرنسية (1905-1946) يقول المستشرق الفرنسي جيفري مارسي: " في حين أن قواعد النحو العربي متشابهة، إلا أن الغاية من تعلم اللغة العربية يكون سهلاً، هذه اللغة قياسية إلى درجة كبيرة، يمكن تعلم شخص في مستوى الذكاء الطبيعي هذه اللغة في عدة شهور وبمجهود بسيط، لأنه لو تقارن أفعال اللغة العربية بأفعال اللغة اليونانية يلاحظ أنها في غاية السهولة، إضافة إلى ذلك لا توجد أي صعوبات في اشتقاق الكلمة".

وقد كتبت المستشرفة الألمانية انا ماريا شمبل مقدمة عن القرآن الكريم المترجم إلى اللغة الألمانية، وأفادت بقولها " اللغة العربية لها وقع موسيقي على الأذن إلى درجة كبيرة، ولم أستطع وصفها بشيء سوى أنها لغة الجنة".
وقد قال الألماني هلموت رتر (1892-1971) الذي عمل أستاذاً في كلية الآداب بجامعة استانبول ان " اللغة العربية أبسط وأوضح لغة في العالم. في حقيقة الأمر أن محمود تبسيط المبسط وشرح المشروح تذهب سدى".

في غضون ذلك كان البعض يتخذ إصلاح اللغة هدفاً لهم، أما البعض الآخر فنشر هذه الأفكار التي تهدف إلى جعل اللغة أكثر تعقيداً، ومن ناحية أخرى بدأ إنتشار الأخطاء النحوية سريعاً في المدارس والدوائر الرسمية، ونتيجة ذلك كان المستوى التعليمي هشاً.

كان المجتمع العربي ينفصل عن بعضه البعض تدريجياً، وكانت الروابط الثقافية تتقطع مثل حبل الوريد على هذا النحو، وكان ظهور اللهجات المختلفة يجعل صعوبة التواصل الثقافي أيضاً.

لا يمكن النقاش حول أفضلية اللغة العربية الفصحى علي اللغة العربية العامية في حقيقة الأمر، لأن كتابة الرواية والقصة القصيرة أو أي أثر آخر باللغة العربية الفصحى في بلد عربي ما، يمكن فهمها في بلد عربي آخر، ومن الطبيعي أنه يجعل الثقافة في البلدان العربية غنية.

ووفقاً لبعض الساسة، لن تتمكن الدول العربية من التطور ما دامت متمسكة باللغة الفصحى. وزعموا أن التعليم باللغة العربية الفصحى يستغرق وقتاً طويلاً، أما التعليم باللغة العربية العامية فيستغرق وقتاً قصيراً، فلو كان التعليم باللغة العربية العامية ستكون تلك الدول من القوى العظمى.

من المعروف ان هناك فروقاً كبيرة بين اللهجات، فمثلاً يواجه شخص مصري صعوبات في فهم لهجة أهل الشام، وشخص سوري يواجه صعوبة في فهم اللهجة المصرية، وكذلك يواجه شخص مغربي وسوري صعوبات أيضاً في فهم اللهجة المصرية. بينما يقوم الكتاب من أعراق مختلفة في العالم بعمل دراسات على لغة واحدة، فليس من الممكن قبول مطالبات بعض المستشرقين والمثقفين العرب بإلغاء اللغة العربية الفصحى، باعتبارها محاولات حسنة النية، فهي تعد لغة مشتركة بين العرب.

زعم المطالبون باستخدام اللغة العربية العامية بدلاً من لغة الكتابة، أن اللغة العربية الفصحى لا يمكن استخدامها في المصطلحات العلمية بشكل كافي. وأوضح كمال يوسف الحاج قانلاً "توجد أوجه قصور في كل اللغات حتماً. حيث أن أوجه القصور الموجودة في اللغة العربية الفصحى لا يقتضي استخدام اللغة العامية كلغة كتابة.

ينبغي هنا ذكر واحدة من الأفكار التي زعمها زكي مبارك في هذا الشأن: " يمكن للمثقفين العرب اليوم فهم أشعار طرفة وعنترة، لكن لا يمكن لشخص انجليزي أن يفهم شيئاً من الكتب التي تم تأليفها قبل خمسة قرون".

كما هو معروف أن اللغة العربية تُدرس اليوم بالفصحى في العديد من دول العالم، يتحدث فيها الأساتذة والطلاب باللغة العربية الفصحى، عندما ينهي الطالب المرحلة الجامعية، ويذهب إلى دولة عربية ما يكون مضطرباً، ويتساءل قائلاً أي لغة تعلمتها؟ ان أخطر ما في الأمر قد يصعب فهم الثقافة و الحضارة العربية علي الشعب العربي في المستقبل القريب

فاذا ينبغي اولاً تشجيع إلقاء المعلمين في جميع البلدان العربية دروسهم باللغة العربية الفصحى. و من ثم الزامهم في مراحل التعليم باستخدامها و الإصرار على التحدث بها في دوائر الدولة خاصة وفي بعض الاماكن عامة، و الخروج باللغة العربية من نطاق الكتب والدراسات إلى نطاق التطبيق في الحياة اليومية وإلا ستكون اللغة العربية العامية بمثابة مرض التليف الكبدي الذي يعطل عمل باقي أعضاء الجسم، ومن ثم يكون قد فات الأوان

المراجع و المصادر

- محمد فهمي، تاريخ ادبيات عربية، اسطنبول 1914
- امين الخولي، محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية، القاهرة 1957
- الشيخ محمد الحضرمي حسين، دراسات في اللغة، دمشق 1975
- محمد ايد، المظاهر الطارئة علي الفصحى، القاهرة 1980
- سعيد نفوسة زكريا، تاريخ الدعوة الي العامية و اثارها في مصر، مصر 1981
- احمد مختار عمر، العربية الصحيحة، القاهرة 1981
- داوود سلوم، دراسة اللهجات العربية القديمة، بيروت 1986
- مرزوق بن صنينان تباق، الفصحى و نظرية الفكر العالمي، 1407
- عبد الفتاح المصري، قطوف لغوية، بيروت 1987
- نذير محمد مكتبي، الفصحى في مواجهة التحديات، بيروت 1991
- كمال يوسف الحاج، فلسفة اللغة، بيروت
- علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، القاهرة
- محمد خلف الله، الثقافة الاسلامية و الحياة المعاصرة، القاهرة

